أتقنوا العبادة والمعاملة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٥م

الحمد لله الذي أعزَّنا بالإسلام، وهدانا بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبيّ الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أوصيكم عباد الله وإياي بتقوى الله، فاتقوه حق تقواه، وتزودوا من دنياكم هذه لآخرتكم عملاً يرضاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين، وعن آل بيته الطيبين الطاهرين، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

ها هو العشر الأخير من شهر رمضان، وها هي بشارات العِتق من النار تلوح في سماء الوعد الإلهيّ، تستنهض الهِمم، وتُصفِّي القلوب، وتُزكِّي النفوس، وتُشوِّق الأرواح.

والعِتق من النار يعني تحوّلاً حقيقيًّا، لأن الإنسان إما أن يكون من أهل الجنة، وإما أن يكون من أهل النار، فالعتق من النار يعني تحولاً في مقاصد الإنسان لتكون جِنانية، ويعني تحوّلاً في سلوك الإنسان ليكون جنانيًّا، ويعني تحولاً في أحوال الباطن وفي الأخلاق الإنسانية ليتحوّل هذا الإنسان من ظُلمانيٍّ جهنميّ، إلى نورانيٍّ جِنانيّ.

العتق من النار لا يعني تحولاً من مجرد الاكتفاء برُكيعات في الليل إلى قيام طويل يُكثر فيه الإنسان الوقوف والتلاوة، ويستزيد فيه من الذِكر، فهذا لا بد منه، لكن يتبعه تحولٌ سلوكيّ.

ومن هنا نجد القرآن العظيم يُحدِّثنا فيقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

فإذا وقفنا في القيام نقرأ القرآن، وأردنا أن نزن بعد ذلك قراءتنا وتلاوتنا وتفاعلنا مع ما نحضر بين يديه من كلام الله، فما علينا إلا أن ننظر إلى ذلك التحوّل، هل استقام السلوك؟

وهكذا علينا أن نلاحظ ونحن نتدرب على الذكر وعلى التلاوة وعلى القيام، ويتدرب بعضنا على خدمة بعض – لا سيما في وقت الاعتكاف، حينما يتسابق المتسابقون في الخدمة – هل نُدرِّب أنفسنا مع ذلك على ترك الفضول، وعلى ترك الاشتغال بما لا يعني، وعلى ترك خمولنا وكسلنا في بناء حضارتنا الإسلامية، وفي تعلُّمنا، وفي بحثنا...؟

أما نتذكّر تلك القصة، حينما جاءت امرأتان إليه صلى الله عليه وسلم صائمتان، فقال: قِيئا، فقاءتا لحمًا ودمًا، كانتا تُكثران العبادة، أتقنتا عبادة الله تعالى، لكنْ كانت الغيبة والنميمة في معاملتهما مع الناس، فلم تُفرز عبادتهما تحوّلاً.

هل نتدرّب – ونحن نتدرّب على العبادة في هذه الأيام التي يحصل فيه التحوّل – على مفهوم إتقان العمل؟

نعم، أقصد إتقان العمل بكل أبعاده، ولا أعني عمل الآخرة، بل أعني عمل الدنيا والآخرة، فلم يحصل انفصال بين الدنيا والآخرة أبدًا، بل إن سلامة الدنيا يُهيِّئ لسلامة الآخرة.

وإنَّ تفوُّقَ المسلم في علمه وعمله وخُلُقه وفهمه وعطائه... يُمهِّد لاستقرار أحواله الدينية.

ولماذا تسلّط علينا أعداؤنا اليوم؟

هل لأننا قصّرنا في الصلاة؟

هل لأننا قصّرنا في الصيام، أم لأننا لم نتحوّل ذلك التحوّل السلوكيّ الذي يكون مع الصلاة والصيام، فضعفنا و لم يعد لنا قيمة أو اعتبار؟

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهل الفحشاء والمنكر ينحصران في السرقة والزنى وشرب الخمر؟

ألا يُعتبر تخاذلنا الذي نعيشه اليوم من أكبر الفحشاء والمنكر؟

كنت أتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ٣١]

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ إنه تبارك وتعالى يدعونا إلى تحوّل سلوكيّ، فشتان شتان بين من يكون القرآنُ الكريم تلاوةً في لسانه، ومن يكون مُسيِّرًا للجبال.

فكم منا من يقرأ القرآن، لكنه لا يُسيّر نفسه، فضلاً عن أن يُسيّر الجبال؟!

تُرى هل سنتحول تحولاً سلوكيًّا لنتعاون في المصنع، ولنتعاون في المختبر، ولنتعاون في البناء...؟

فإذا لم نُدخِل في اعتبار بنائنا التدريبيّ هذا الاعتبار، نبقى ندور في فلك لا يُنتج تحولاً.

فلا أريد أن نبقى نتسابق على خدمة بعضنا في الطعام، دون أن نقدر على التكافل والتكامل، ولا نقدر على أن نرتقي إلى سويةٍ من خلالها نصبح أصحاب تأثير: نُسيّر الجبال، ونُقطّع الأرض بالقرآن، ونُكلّم الموتى بالقرآن.

بالله عليكم إذا كنا نعجز عن تكليم الأحياء بالقرآن، أنقدر على تكليم الموتى بالقرآن؟!

إنها وقفة عابرة، أردت من خلالها في موسم العتق من النار أن أُذكّر نفسي أولاً وأن أُذكِّركم يا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يكون الميزان في أيدينا، فلا نخدع أنفسنا بعبادة مُتقنة لا تكون معها معاملة متقنة، ولا نخدع أنفسنا بتدريبٍ على عبادة متقنة لا يكون معها تدريب على معاملة متقنة.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.